

سمية نعمان جسوس

بلا حشومة: الجنسانية النسائية في المغرب

ترجمة عبد الرحيم حزل
(بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٣). ٢٨٨ ص.

محمد طيفوري^(*)

باحث في العلوم القانونية وعلم الاجتماع،
جامعة ابن زهر، أغادير - المغرب.

- ١ -

سلسلة من الأسئلة والاستفسارات ذات
الصلة بموضوع الجنس.

ب - التغير الطارئ على بعض
الجزئيات التي اعتمدتها الباحثة في
دراستها خلال العقود الثلاثة التي مرّت
على إنجازها، كاستبدال مدونة الأحوال
الشخصية بمدونة الأسرة، على سبيل
المثال، دون أن يمسّ ذلك جوهر الدراسة
التي فتحت باباً على حقل جديد للاشتغال
لم تنجز حوله حتى الآن سوى دراسات
معدودة على أصابع اليد.

يحتوي العنوان على كلمة «حشومة»
التي تعني باللغة الدارجة المغربية:
الخجل، أو العيب، أو العار... مسبوقة
بأداة نفي ما يعني أن الكاتبة مقبلة على
طرح ما يعدّ لدى العوام عيباً وعاراً،
معلنة بهذا منذ البداية خروجها عن هذا
النسق، وهو ما برهنت عليه فعلاً من
خلال الفصول الثلاثة المشكّلة للكتاب التي

من الكتب النادرة التي حاولت
مقاربة قضية من القضايا المسكوت عنها
إلى الأمس القريب في المجتمع، ألا وهي
الجنس، مقارنة مكنتها من قلب السائد
اليومي والمعتاد بين أفرادها، كتاب أعدّ في
الأصل كأطروحة دكتوراه قدمت في جامعة
باريس الثامنة عام ١٩٨٥ تحت عنوان:
«Au-delà de la pudeur». وقبل الحديث عن
الكتاب ومضامينه، تجدر الإشارة إلى
ملاحظتين جوهريتين هما:

أ - اعتماد الباحثة على دراسة
إحصائية تتعلق بـ ٢٠٠ شخص (٧٥
امراً، و٧٥ فتاة، و٢٥ أرملة، و٢٥ مطلقة)
كعيّنة للبحث في مدينة الدار البيضاء،
كبرى مدن المغرب، مستهدفة كافة
الشرائح الاجتماعية والفئات العمرية
(أميات/متعلّقات، قرويات/حضرّيات،
نساء/فتيات...) من خلال استمارة تضمّ

تظهر المجتمع على حقيقته من خلال الانقلاب الجذري في التعامل مع الجنس ونظرته إليه، إذ يتحول هذا الأخير بين عشية وضحاها من تابو، وممنوع، ومحرم... وهلم جراً من الأوصاف، إلى موضوع الساعة ومدار أحاديث الجميع، صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً، ليلة الزفاف (ليلة الدخلة)، الأمر الذي استفهمته عنه الكاتبة قائلة: «تبدو الظاهرة مثيرة للاستغراب، ولا سيما أن التربية تجعل النساء ينشأن منذ نعومة أظافرهن على حشو أذهانهن بالمنوعات المتصلة بالوظيفة الجنسية... التي تتعرض فجأة لانتهاك عنيف» (ص ١٩٩). مبرّر هذه الاستباحة الطارئة والفجائية هو ذلك الطقس الذي يرافق انتقال العروس تلك الليلة من مرحلة إلى أخرى (الفتاة إلى امرأة)؛ طقس يستطيع من خلاله المجتمع التخلص من منطق الإثم والعار وكل ما يلزم الجنس من محرمات تراكمت عبر سنين طويلة. وهنا يطرح التساؤل عن قدرة لحظة زمنية (ليلة) على تغيير معتقدات أسست عبر أجيال؟

ليلة خاصة بكل المقاييس، بل هي ليلة المجتمع للثورة على المحظور، ففيها يثبت كل من الزوج والزوجة للمجتمع ولأسرته ذاتيته في لحظة افتضاض البكارة التي تكون بمثابة قطب الرحى في حياة المرأة بها تثبت شرفها وعفتها: «سوف أغلق أفواه جميع أولئك الذين اغتابوني وأشاعوا عني أنني لست عذراء» (ص ١٧٩). إنها الحجة القاطعة على الاستقامة، بل منهن من يعدّ الأمر مكافأة ومقابلاً رمزياً تزهو وتفتخر به العائلة: «لقد عانى أبواي الكثير لأجلي، فمن العدل أن أكافئهما في يوم زفائي بأن

حاولت فيها تتبع «الأنثى» منذ ولادتها إلى أن تصبح أمّاً، مروراً بالمراهقة والخطوبة، فالزواج. لقد عنونت **الفصل الأول** بـ «قبل الزواج»: إنه فضاء البيت المغلق الذي حاولت تسليط الضوء فيه على دونية البنت وسط العائلة منذ ولادتها، مستعرضة السلط التي تخضع لها (سلطة الأب، والجد، والأم، والأخ...) المتزايدة حتى وصولها إلى المراهقة التي يتحول فيها جسدها إلى ملك عام للعائلة يجب عليها الحفاظ عليه، مقابل ظهور بوادر أولى العلاقات الغرامية/الجنسية لدى الفتاة، ما يفرض عليها السعي إلى التوفيق بين الأمرين. أما **الفصل الثاني** فحمل عنوان «الزواج»: إنه فعل اجتماعي وحياة يومية من خلاله نبشت في التقاليد الملازمة للزواج والتحوّل من زوجة إلى أم، وما يستتبعه من أدوار جديدة لدى المرأة، وقبل كل هذا نظرة النساء إلى العلاقة الزوجية التي اعتبرتها إحدى المستجوبات «ضرباً من ضروب الشركة التعاقدية. فالمرأة تمنح الرجل قوة عملها ودرايتها وقدرتها على الإنجاب، كما تمنحه جسدها، وتحصل في مقابل ذلك كله على المأوى والطعام، وعلى وضع اجتماعي هو وضع الزوجة» (ص ١٣٤). وجاء **الفصل الثالث** الذي شغل الحيّز الأكبر تحت عنوان «الدم والليلة، اللذة والألم»: وفيه كشفت الباحثة الغطاء عن حقائق لطالما طمست ومنع الحديث عنها بدعوى «حشومة، عيب، حرام...»، كالعذرية وتصور النساء للجنس والحياة الجنسية بين العناء والمتعة، ونظرة الإسلام للذة...

إنه الفصل المحوري في الدراسة، لأنه يحوي في ثناياه جملة من المفارقات التي

المرأة لتحقيق مأرب، كالاحتفاظ بالزوج، والإشباع الغريزي، والإشباع المادي، والتقرب من الزوج ونيل عطفه، والانتقام من سلطة الرجل... ومن الشهادات الواردة في هذا «إنه واجب زواجي تقوم به المرأة، وفي مقابل ذلك تحصل على السكن والأكل» (ص ٢٢٤)، و«إنني أسلم نفسي له لتحاشي غضبه، فتلك اللحظة الوحيدة التي تخفّ فيها عدوانيته المعهودة، وأحصل منه على شيء من الحنان» (ص ٢٢٢)، ومنهن من يجعلنها فرصة للانتقام: «أحسه أضعف من المعتاد، إذ يجثو عند ركبتني فيما هو في الأوقات العادية متسلط وأناثي» (ص ٢٦٤).

من التناقضات التي تحفّ هذا الموضوع ازدواجية في التعامل معه وفق الظروف والأشخاص: «عندما أخرج مع رجل، وأمل أنه سيتزوجني، أزعم لنفسي أنني عفيفة وأتصرف وفقاً لذلك. أما عندما أكون برفقة رجل عابر لأجل مغامرة عابرة، فأني أسلم له نفسي بلا قيود» (ص ٢٥٨). هذا جواب إحداهن عن سؤال تلبية الرغبة الجنسية. وقالت أخرى: «إذا كنت أنا وعشيرتي نحفظ، لأن في نيتي أن أنزوجه إن طلبني لزوج، أما عندما تسنح لي الفرصة لأكون مع رجال آخرين فإنني أوافقهم على ما يطلبون مني، عدا أنني أحسنني أقل تضايقاً وأستمتع بذلك الجماع» (ص ٢٥٢). ازدواجية لم تسلم منها حتى المتزوجات اللواتي تباينت ردودهن، ومنها: «زوجي لا يهتم بغير قضاء حاجته، وأما عشيقتي فهو يهتم بكل جزء من جسدي ويفلح في إهاجتي» (ص ٢٧٠). إننا أمام معطيات تكشف عن واقع فرضه المجتمع لكل طريقته الخاصة في التحايل عليه.

يحمل إليهم قماش مبقعاً بدمي» (ص ١٧٨). كما أنها فرصة للزوج للبرهنة على فحولته ورجولته من خلال السرعة في عملية الافتضاخ التي ينتظرها الكل؛ هذه الأخيرة تتحول في غالب الأحيان إلى عملية اغتصاب فضائحي بمباركة وتشجيع من المجتمع ذي الهمم الوحيد الأوحده المتمثل في الدم الذي أضحى مقدساً. حكّت إحداهن عن التفاصيل الكاملة لهذه العملية التي تمّت على مرأى ومسمع من العائلتين (العريس والعروس): «... وضعنتي حماتي في غرفة زفافي، ودخل عليّ الزوج، فانتابني خوف شديد... وسرعان ما وضعني فوق زربية، وحاول أن يفترعني، لكن بقيت أنخبط بين يديه بقوة لم يجد أمامها بدّاً من المناداة على النساء، فقمّن بتوثيقي، لكنه لم يفلح برغم ذلك في فعل ما أراد بي، إذ عضضته وأطلقت عقيرتي للصرخ... أخذت أُمّي وأختي الكبرى تشتكيان، إذ خشيتا أن يعتقد الجيران أنني لم أكن عذراء. وحينئذ تدخّلت أختي، فركزتني في الأرض، وسدّت فمي بمنديل، وبذلك تسنّى لزوجي أن يفترضني أمام ناظريّ أخته» (ص ١٩٠). إنها جرائم، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، تقع تحت طائلة قيم الشرف والرجولة التي نرى أن يعاد فيها النظر لوضع حدٍّ لمثل هذه الحالات.

- ٢ -

من الأسئلة التي سعت هذه الدراسة إلى الإجابة عنها كذلك النظرة أو التصوّر الذي يعطى للعلاقة الجنسية، أو بالأحرى الوظائف والأدوار التي قد تلعبها هذه الأخيرة، فهي تظلّ - سواء تمت داخل إطار الزواج أو خارجه - أداة قوية في يد

على رغم كل ما قد يقال عن هذه الدراسة من ملاحظات من قبيل اقتصارها على مدينة واحدة (الدار البيضاء)، أو محدودية العينة المدروسة (ص ٢٠٠)، أو تحول المجتمع والتحرر الجزئي للعقل الجمعي... إلا أنها تكشف النقاب عن أمور متوارثة أباً عن جد، مشكّلة تراكمياً تجاوزه العصي جداً، بل إن الانفتاح الذي يعرفه المجتمع يساهم في تكريسها من جهة، ويحاول تغيير الشكليات دون المساس بالجواهر في ما يوصف بالتحرر من جهة أخرى □

لقد سعت الباحثة إلى تناول الموضوع من كافة الزوايا، مما دفعها إلى البحث في العقلية الخرافية التي توازي كل ما سبقت الإشارة إليه، فتوقفت عند جملة من الظواهر المترسّخة في اللاوعي الجمعي، كالسحر، والتفاف، والوشم... والأدوار التي تلعبها في أوساط المجتمع: «غير ممكن، أنا متقفة وغشائي لا يزال سليماً»، وهو ردّ فعل إحداهن لما اكتشفت أنها فقدت بكارتها، وهي التي كانت تخال أن عملية التقاف محصّنة لها من الافتضااض.

صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية فلسفة الحرية

أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشرة

التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة

مجموعة من الباحثين

يتضمن هذا الكتاب أقساماً ثلاثة، في القسم الأول ثلاثة بحوث، تُعنى بالإشكال النظري لمفهوم الحرية ووظائفها وجدواها، وما أُقيم حولها من جدل، قديماً وحديثاً. وفي القسم الثاني ثمانية بحوث تتناول الحرية في الفكر الإسلامي الحديث، وفي القسم الثالث خمسة بحوث تتناول الحرية في الفكر الغربي.

وتنעד الصلة بين فصول الكتاب، فتربط إشكالية الحرية في التراث الإسلامي ابتداء من مقولة «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟» ليغدو السؤال اختزالاً للكلام في أصل الوعي بالحرية، ثم ما جاء عن العديد من المفكرين، مما يعكس طبيعة التعامل مع الحرية باعتبارها عملية تحرر، ومجرد إمكانية، قد تتحقق وقد لا تتحقق اعتماداً على فعل الفرد وممارسة الحرية. فالحرية علّة ومعلول، مقدمة ونتيجة. والفعل الحر هو الذي يحول الحرية من الإمكان إلى الواقع، ومن الفرض إلى الصدق، ومن الخوف والتهيب، والتردد، إلى الثقة بالنفس والاطمئنان.



٤٢٩ صفحة

الثنى: ١٥ دولاراً

أو ما يعادلها